الفصل الثامن

في يوليو الناصرية.. وما «حكاية أزمة مارس ٥٤»؟!

«كنا نسرع إلى الراديو عندما يخطب عبد الناصر ونذوب - رغم أننا نعارضه - فيما يقول لقد كان يتكلم بالنيابة عنا ويعبر عن وجدان الناس.

وأذكر إحدى هذه الخطب سمعتها مع أستاذنا يحيى حقي. ولقد بدأنا السماع ونحن نتساءل ما الذي يمكن أن يقال؟ وانتهينا شديدي الحماس لما سمعنا وعلق يحيى حقي على ذلك بقوله: إنه ساحر!

«وفي حين أتت 5 يونيو لتكون «الشماعة» التي يعلق عليها البعض كراهيته للفترة اكتشفت فيها أن ما حدث لم يكن معركة خسرناها. بل كانت مؤامرة دولية لتحديد حجم مصر مثلما حدث لمحمد علي - إبراهيم ثم لإسماعيل. لقد أراد عبد الناصر أن يبني دولة عصرية قوية في هذه المنطقة ولذلك كان لا بد للقوى العالمية أن تضرب التجربة.

تصالحنا مع جمال عبد الناصر مجرد تصالح ولكننا عندما فقدناه أدركنا هول ما فقدنا.

«كتبت عن عشرات الشخصيات التاريخية من امرئ القيس إلى بيبرس وقطز إلى المتنبي إلى سليمان الحلبي.. وفي الاقتراب من كل شخصية يزداد الخلاف معها ، وغالبًا لأن الإنسان مقيد بعصره وظروفه.

والغريب أن ما حدث عندما كتبت عن جمال عبد الناصر كان عكس ذلك تمامًا. لقد بدأ التوحد مع العدوان الثلاثي، وكان الانحياز مع 5 يونيو. أما الحب فلقد بلغ مداه عندما بدأت محاولة التعرُّف على جمال عبد الناصر كإنسان. وما أثر فيّ لم يكن حكايات تروى. بل ملموسة».

محفوظ عبد الرحمن[52]

(52) من مقدمة كتاب «سيناريو فيلم ناصر 56» (عن الهيئة العامة لقصور الثقافة 2012)

يتباكى البعض حتى الآن، على ما يسمونه فرصة الديمقراطية الضائعة في «مارس 1954»! وأن البلاد من يومها لم تعرف خيرًا ولا سلامة، ويورث بعض اليسار الماركسي المصري واليمين الديني أجيالهم الجديدة والمتعاقبة هذه «المناحة» المستمرة على الديمقراطية والحريات المهدرة..!. وأن ما يحلو لهم أن يسموه زيفًا وبهتانًا: «نظام يوليو العسكري» - أو «انقلاب عسكر يوليو» - هو السبب في كل ما عرفته وعانته البلاد من مصائب على امتداد ستين سنة، مازجين مزجًا: عصر قائد ثورة يوليو جمال عبد الناصر، بعهدَي الانقلاب على الثورة (السادات - مبارك)! ويقولون دائمًا أو يلوكون: إن مصيبة المصائب بدأت منذ «مارس 54»!.

كما أكدنا - في الفصل السابق - فإن ثورة يوليو 1952 لم تبدأ انقلابًا، إنما بدأت «حركة ثورية حقيقية»، وهي بدأت «مشروع ثورة شاملة»، لكنها تحولت بالفعل إلى «ثورة شاملة ذات جوانب متعددة»، عندما انتهت مرحلتها الانتقالية الأولى «التمهيدية» وقادها قيادة كاملة جمال عبد الناصر ابتداءً من 1955، خصوصًا مع الانتصار التاريخي في قضية الجلاء والاستقلال في 1954، مع تمكن جمال عبد الناصر قائد الثورة الحقيقي من حماية وإنقاذ الثورة، من تحالف قوى الثورة المضادة في مارس 1954.

وهي قوى تجمعت من بقايا وفلول النظام القديم إقطاعًا ورأسماليين، والأحزاب القديمة المعبرة عن مصالحها، إلى جانب جماعة الإخوان المسلمين التي تريد أن تستأثر بالسلطة السياسية - تحت شعارات ومفردات من الدين - ولم تكن حركة الضباط الأحرار في نظرتهم إلا مجرد مجموعة شباب - أو فتية صغار! - يمكن إزاحتهم، بالتحالف مع الطبقة القديمة، وبعض الشيوعيين، ومن خلال توظيف (محمد نجيب) نفسه (كي يصبح واجهة لقواهم المضادة لحركة يوليو بعد أن كان واجهة لحركة يوليو!).

وكان الشعار الذي حاولوا به تضليل الشعب - لكن الشعب كان أكثر وعيًا وصفاء حس من أن يخدع - الشعار الذي جمع كل تلك الأطراف المتناقضة المتحالفة هو: (عودة الجيش إلى ثكناته.. واستعادة الحياة الديمقراطية!).

لكن في تلك «الحياة الديمقراطية» كان كل يغني لليلاه!:

- **ففي «مارس 54»**: جماعة «الإخوان» تريد الصعود إلى السلطة، من غير أن تتركها بعد ذلك أبدًا؛ إذ إن «الحاكمية لله»، فهم بالطبع ـ وحدهم ـ الذين سوف يحكمون طول الوقت باسم الله و«بما لا يخالف الشريعة الإسلامية أو شرع الله»! وهم لا يجدون في كل «المسلمين» الآخرين ـ سواهم ـ الأجدر بذلك، هذا إن كان «سواهم» في نظرهم «مسلمين حقًا»؟! فالإسلام والإيمان الحق يبدأ بهم وحدهم ويقيم، يستقر ويستقيم عندهم!.

- **وفي «مارس 54»**: الذين معهم من شيوعيين، لا يعتنقون الديمقراطية الليبرالية والتعددية الحزبية، مثلهم كالإخوان المسلمين بالضبط، بل هم يعتنقون ـ وفق مصطلحهم ـ «ديكتاتورية البروليتاريا»، والحكم الدائم لما يرونه حزب الطبقة العاملة القادرة والجديرة ـ وحدها ـ بتحقيق الأهداف الثورية واحتياجات الطبقات الشعبية ومهام «مرحلة الثورة الاشتراكية».. لكن أولًا بعد المرور بـ «مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية البرجوازية»، فلم تكن في نظرهم آنذاك الديمقراطية الليبرالية «البرجوازية» والتعدد الحزبي، إلا مجرد «الجسر» أو «السلم» الذي يمكنهم أن يعبروا من خلاله إلى بناء الحزب الشيوعي، ويصعدون عبره إلى الحكم الدائم لصالح الثورة والشعب والاشتراكية والأممية الشيوعية!.

فإلى جانب هذه «الديمومة» للحكم، لدى الإخوان والشيوعيين معًا، توجد كذلك «الأممية» ـ أي العالم ككل، نطاقًا ومكانًا إلى جانب المهام في الزمان وظرفه ـ لدى الطرفين معًا!.

إن «أممية» هؤلاء من الشيوعيين، نقطة مشتركة أخرى مع الإخوان المسلمين الذين كان لتنظيمهم «الدولي» وأفكارهم، «أممية» أيضًا بدورهم!. وإذا كانت الماركسية هي لكل وبكل عمال العالم الذين يجب أن يتحدوا وأن يقودوا، فإن

دار الإسلام كذلك ينبغي أن تشمل كل العالم بقيادة الإخوان المسلمين وفروعهم في كل موضع وأرض!.

- **وفي «مارس 54»**: لم يكن حزب الوفد خاصة جناحه الإقطاعي - ورجله القوي فؤاد سراج الدين باشا - ومعه مجمل الأحزاب السياسية القديمة، التي كان يعبر معظمها عن مصالح كبار ملاك الأراضي وأصحاب المصالح الرأسمالية ذات النفوذ في الحكم، لم يكونوا جميعًا يريدون سوى وأد الثورة، وكانوا يراهنون على أنهم يستطيعون العودة إلى نفوذهم القديم الذي كان. وفي ظل الاحتلال. بانتخابات برلمانية وحياة حزبية تستأنف ما كان وانقطع بقيام الثورة وإجراءاتها!.

- **وفي «مارس 54»**: كان مع تلك الأطراف المتحالفة المتناقضة اللواء محمد نجيب، أو أنهم في الحقيقة أرادوا جميعًا أن يوظفوه، ويستغلوا نقاط ضعفه كبشر، وطيبته - الحقيقية إلى حد كبير بالفعل. لخدمة مصالحهم إلى أبعد حد ممكن!.

وكانت مشكلة «نجيب» ببساطة أنه أراد أن يقوم بأداء شخصية القائد الفعلي للثورة على غير أساس أو سبب، وأنه أراد أن يحول دوره إلى حال مكتسب ومكانة قائد فعلي بل منفرد. إنه الدور القيادي الذي قدمه به شباب الثورة، في ظرف خاص آنذاك كوجه للحركة الثورية، وطني شريف، سبق «للضباط الأحرار» أن تعاملوا معه وخبروه ودعموه في انتخابات نادي الضباط كمقياس لمدى شعبيتهم وتأثيرهم داخل الجيش قبل الثورة في مستهل عام 1952. وقد أحب فيه الشعب طيبته البادية وبشاشته، لكن نجيب لم يدرك أنهم أحبوا فيه وفي الثورة أكثر، حركة الثورة الطليقة والإجراءات والمنجزات السريعة منذ 23 يوليو في مختلف المجالات. وكان منطقيًا - إن لم يكن حتميًا - الوصول إلى لحظة التضاد أو التعارض الكامل مع شباب الثورة قياداتها الفعلية، كما أنه لم يدرك نصيحة وحكمة «أستاذ الجيل»، المفكر والسياسي العتيد «أحمد لطفي السيد» حينما ذهب إليه قادة الثورة يعرضون

عليه رئاسة الجمهورية الجديدة: «أنتم الأدرى بأيامكم وعصركم، والأقدر على العمل والتصرف إزاء أحوال ومتطلبات البلاد في الواقع اليوم».

لكن «نجيب» تحت رغبة، متصاعدة أو متعاظمة، في الحفاظ على وضعه الذي صدَّقه ـ كقائد للثورة ـ سمح لنفسه بأن يدخل في «حلف مارس 54»، تحت الشعارات التي تدور حول الديمقراطية، وتتشدق بها تلك الأطراف!.

إن الطريق الوحيد، الذي كان يمكن أن تصل إليه البلاد، وفق ما أراد «حلف مارس 54»، هو حياة حزبية بائسة قائمة على الأحزاب القديمة المتهالكة، تعيد إنتاج النظام القديم، يحاول الإخوان المسلمون من خلالها أن ينفردوا، ويحاول الشيوعيون من خلالها أن يصعدوا، ويحاول الحزبيون القدامى من خلالها أن يعودوا!.

ولم يكن أي منهم آنذاك يؤمن حقًا بالتعددية الحزبية وتداول السلطة ـ وتسليمها في الميعاد إذا جاء الاستحقاق بعد أن يحصل عليها! وكانوا جميعًا يدعون أنهم «ليبراليون ديمقراطيون» حقًا، لكنه كان محض ادعاء، ومجرد سبيل إلى الوصول والوثوب.

وحده جمال عبد الناصر كان صادقًا، ووحده لم يدّعِ أنه «ديمقراطي ليبرالي».

وكان صادقًا مع شعبه في أننا في مرحلة ثورة، وأنها تفرض شرعية ثورية، ومع ذلك فمن خلالها لا بد من البحث عن اجتهاد جديد في صيغ الديمقراطية، ليست صيغة الحزب الواحد المعهود لدى الكتلة الشيوعية، ولا صيغة التعدد الحزبي المعتاد لدى الكتلة الغربية.

فمثلما كان يبحث عن (الطريق الثالث) في العلاقة مع الكتلتين، وعثر مع صديقيه الرائدين نهرو وتيتو على صيغة عدم الانحياز والحياد الإيجابي.

ومثلما كان يبحث عن (الطريق الثالث) في القضية الاجتماعية ـ الاقتصادية، واختار التنمية الشاملة، بالقطاع العام قادرًا متقدمًا، إلى جانب القطاع الخاص غير المستغل حاضرًا قويًا، والقطاع التعاوني مصانًا مستقلًا.

كان كذلك يبحث عن (طريق ثالث) في قضية حرية المواطن والديمقراطية، واجتهد ـ وللاجتهاد على الأقل أجر ـ في الوصول إلى صيغة التنظيم ثنائي التركيب (شعبي ـ طليعي)، وكما أسلفنا ففي التنظيم الشعبي الواسع أو العام، تمارس الديمقراطية كل قوى الشعب العاملة (الخمس: العمال ـ الفلاحون ـ المثقفون الوطنيون ـ الجنود ـ الرأسمالية الوطنية غير المستغلة)، إلى جانب تنظيم طليعي يتقدم، من أصدق القيادات الوطنية وأصلبها. وجنبًا إلى جنب هذا وذاك «منظمة شباب» تعد للمستقبل قيادات حقيقية من جيل يستكمل بوعي واقتدار مهام جيل سبق. فضلًا عن إصدارات في الصحافة تعبر عن مختلف الاتجاهات والتيارات (على سبيل المثال مجلات: السياسة الدولية ـ وعلى الجانب الآخر «الطليعة» «اليسارية» ـ «الكاتب» ـ «المجلة» ـ «الفكر المعاصر» ـ «السينما»... إلخ). فضلًا عن حيوية ثقافية، بل ثورة ثقافية بكل ما في الكلمة من معانٍ، قادتها رموز وأسماء راقية باقية على الأيام بإنجازها الشاهق (يتصدرها ثروت عكاشة، كما من اللحظة الأولى للثورة فتحي رضوان، إلى جانب يحيى حقي وأحمد حمروش، وعلي الراعي... وغيرهم على امتداد مراحل الثمانية عشر عامًا من الثورة).

ومع ذلك فإن جمال عبد الناصر، هو رؤية وأفكار لم تعرف التوقف أو الجمود يومًا، وها هو بعد 1967 يتجه فكره إلى صيغة التعددية الحزبية، ويفاتح من سبق أن عارضه لكن من معسكر الثورة وليس الثورة المضادة، في أن تبدأ مصر تجربة تعددية حزبية جديدة، وأن تكون البداية بحزب: هو بالتأكيد لن يكون ضد النظام الجمهوري ولا ضد مكتسبات الثورة ولكنه يعارض من موقع الحرص على الجمهورية والحرص على تطوير المكتسبات.

والحق أن البعض ـ خاصة من اليسار ـ يقر فيما بعد بخطأ موقفه في «أزمة مارس 54»، على الرغم من حسن النية المؤكد لديهم أيامها، مثل محمود أمين العالم في أحاديث عدة (منها حديثه الشامل المطول في عيده السبعين لمجلة «أدب ونقد»[53]).

(53) أكتوبر 1992 العدد 86.

وضمن ما يقول فيه:

«أزعم ـ وهذا تأمل لا تبرير، لأول مرة أقوله بوضوح وصراحة ـ أن الموقف المغلوط الذي وقفناه عام 1954 حدد شكل البنية الديمقراطية لثورة عبد الناصر فقد اجتمعت كل القوى عام 1954 (أثناء أزمة الديمقراطية الشهيرة في مارس) ضد عبد الناصر. كل القوى من «الوفد» إلى «الإخوان» إلى «الشيوعيين»، دخلت في معركة (على رأسها خالد محيي الدين ويوسف صديق، إلى جانب فؤاد سراج الدين وسيد قطب) ضد عبد الناصر. جبهة كاملة ضده مع الديمقراطية. وللحق، فإن كمال عبد الحليم كان يقول لنا: يا جماعة أنتم تتحركون في ثورة مضادة».

أيضًا «خالد محيي الدين»، أحد فرسان وأبطال ثورة يوليو.. الذي يقول بنبل وصدق عرف بهما في جميع الأحوال، في حديثه للناقد المعروف غالي شكري، ضمن أحاديث ضمها كتاب «المثقفون والسلطة في مصر»[54]:

«كنت أرى أهمية إنهاء الأوضاع الاستثنائية والعودة إلى الوضع الطبيعي حتى ولو أدى الأمر إلى فقدان السلطة وعودة الجيش إلى الثكنات. كان تفكيرًا مثاليًا بطبيعة الحال... وأظن أنني لو بقيت في السلطة لأثرت في الأحداث على نحو أعمق وأكثر جدوى؛ لذلك أعترف بأنني أخطأت التصرف حينذاك، بالرغم من أن البعض يرى في موقفي عملًا بطوليًا، ولكنها بطولة لم تؤثر في مجرى الأحداث».

ثم يستطرد «خالد محيي الدين» مشيرًا إلى «محمد نجيب» ودوره، وإلى معانٍ خطيرة:

«المشكلة أنني كنت مع الثورة والديمقراطية، أما هو فلم يكن لديه مانع من تصفية الثورة؛ ولذلك فإن مجمل آرائه في الثورة وسلوكه

(54) دار أخبار اليوم 1990. ص 121.

نحوها يختلف جذريًا عن أرائي وسلوكي، فأنا أعتقد أن الثورة قد غيرت وجه مصر والعرب نحو الأفضل، أما هو فيرى العكس تمامًا».

ومن المهم قبل أن نختم هذا الفصل، أن نذكر بعض ما يقوله الأستاذ محمد عودة في تحليله وتقويمه المدقق (لمارس 1954)، بكتابه «ميلاد ثورة»، وهو واحد من كلاسيكيات الكتب ومن أعظمها عن ثورة يوليو 1952 ومقدماتها[55]:

«وتجمعت كل هذه القوى وقام حلف كان يقوم لأول مرة بين أطراف مختلفة أشد الاختلاف، وهي أطراف حارب بعضها بعضًا طويلًا، ولم يسبق أن اتفقت أو تهادنت من قبل أو من أجل المعركة ضد الاستعمار، ولكنها تحالفت اليوم في مواجهة الثورة.

واستطاع الحلف «غير المقدس» يومئذٍ أن يستدرج الكثير من الوطنيين وأن يلقي غشاوة على أعين كثيرين تحت شعارات الحرية والديمقراطية التي أغرقت بها الحياة السياسية يومئذ.

ونفذ الحلف إلى صفوف الثورة وخلق انشقاقًا داخلها.. وكان «الضباط الأحرار» قد وضعوا على رأس الثورة قيادة شكلية اختاروها لتكون واجهة ثورتهم، وربما لتكون جسر استمرار واتصال، ولكن تلك الواجهة القيادية كانت بتكوينها وبطبيعتها تنتمي إلى النظام «القديم»، ولا تستطيع أن ترى خلال الناس والأحداث ولا تؤمن بقدرة الثورة على المضي وحدها خطوات أبعد، كان لها تاريخها العسكري، ولكن لم يكن لديها الوعي أو الأفق السياسي ورأت أنه من الأفضل أن تسمي الثورة نهضة ولهذا عارضت الإصلاح الزراعي، وأرادت التفاهم مع الأحزاب والسياسيين القدامى بأي ثمن، بل رأت أن مكان مصر الطبيعي هو هو ويجب أن يظل مع الغرب.

(55) محمد عودة ـ ميلاد ثورة. كتاب الجمهورية العدد 31 ـ القاهرة 1971، ص 145 ـ 147.

واستدرج الحلف أيضًا بعض العناصر الطيبة من الضباط الثوريين ومن المثقفين ممن لم يكونوا يتصورون الثورة بغير ديمقراطية ولكن لم يكونوا يومئذٍ يفرقون بين الديمقراطية كواجهة والديمقراطية كحقيقة، والديمقراطية في ظل أحزاب تستخدمها للوصول للحكم والديمقراطية في إطار ثورة تغير وتحرر حياة الشعب.

وأضرم الحلف الأزمة في مارس سنة 54، وبدا للحظات أن كل شيء قد تهدد، وأن القوى المتخلفة والمتطرفة والمضللة توشك أن تنتصر وأن عقارب الساعة توشك أن تعود للوراء، ولكن هبت الجماهير وانضمت على الفور للثورة، وأعلن الإضراب العام وأسقطت الطبقة العاملة المؤامرة كلها.

تحركت الجماهير وطليعتها وهم العمال. وتأكد يومها الالتصاق التام بين الشعب والثورة والذي امتد حتى يومي 9 و10 يونيو وأسقط الشعب المحاولة اليائسة، ولكنها كانت معركة عصيبة وحافلة بكل المتناقضات، وارتفعت فيها كل الشعارات واحتاجت إلى كل الحزم، كما احتاجت إلى كل الحكمة وإلى إزالة البثور ولكن بغير جرح لجسم الأمة أو وحدتها.

وقد قادها الرجل الذي كان يستطيع قيادتها، وكان قائد الثورة الحقيقي والذي عرفته الجماهير والتقيا من يومها لأول مرة، ومن مارس سنة 1954 بدأت مرحلة جديدة.. والثورة بوجهها وقيادتها الحقيقية انتصرت، وسقطت آخر محاولة للنظام القديم.. وبدا عهد جديد تمامًا بدأت الثورة به».

أما «جمال عبد الناصر» فإنه يلخص الأمر كله - وينفذ إلى الجوهر كله - في خطابه البارز الزاخر الذي عرف بخطاب «التحول العظيم» - والذي نراه دائمًا يرتقي إلى مرتبة الوثائق الأساسية للثورة الناصرية - (ألقاه في يوم افتتاح مجلس الأمة 26 مارس سنة 1964).. قال:

«وكان يمكن أن تشدنا الواجهات الشكلية للديمقراطية، ولقد كدنا أن نقترب من هذا المنزلق سنة 1954.. ناسين أن القوة السياسية في أى مجتمع؛ هي تعبير خارجى عن مواقع القوة الاقتصادية، ومهما أنشأنا من الواجهات، ومهما أطلقنا عليها من الأسماء البراقة والصفات؛ فلسوف يبقى دائمًا أن كل شىء خارجى ليس إلا غطاءً للحقيقة الداخلية ورداء... وإذا كانت القوة الاقتصادية ـ كما كان حالها سنة 1954 ـ في يد القلة، فمعنى ذلك أن القوة السياسية كانت باقية في يد القلة، بصرف النظر عن بلاغة الشعارات ورنينها في الأسماع».